حيوانات وردت في آيات

(٣)

فِيل أَبْرَهة

أحمد سويلم

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيل أبرهة/ لجنة التأليف والترجمة في مكتبة العبيكان .-الرياض.

٢٤ص؛ ١٧X٢٢ سم (سلسلة حيوانات وردت في آيات)

ردمك: ٤-٦١١-٢٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٩-٦١٤-٢٠-٩٩٦٠ (ج٣)

١- قصص القرآن أ- السلسلة

ديوي ٢٢٩,٥ ٢٠/٢٨٩٨

ردمك: ٤-٦١١-٢٠-٩٩٦٠ (مجموعة) رقم الإيداع: ٢٠/٢٨٩٨

٩-٦١٤-٢٠-٩٩٦٠ (ج٣)

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ
يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا
أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤)
فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾

[الفيل ١-٥]

obeikandl.com

obeikandl.com

خلقَهُ اللهُ حيوانًا مختلفاً، لهُ خُرطومٌ طويلٌ، ضَخْمَ الجْسمِ، ثَقيلَ الوَزْنِ.

قالَ عَنهُ العَربُ في أمثَالهم:

أشدّ من فِيل! وأعجَب من خلقِ فيلٍ!

وكُنيتُه عندَ العَرَب أبو الحَجَّاج، وأبو الحرمَان، وأبو مُزاحِم.

والفيلُ على عِظَم حَجْمه يَقبلُ التَّوجيهَ والتأديبَ من صَاحبه.

والهندُ تعظِّمُه لمَا يجدونَ فيه من الخصَال الحَميدة، وبَديعِ منظَرِه، وطُولِ خُرطُومه، وسَعَة أذُنَيْه، وخفَّة وَطْئه علَى الأرْض.

أمَّا سُوءُ طبَاعه فيتمثَّلُ في حِقْدِه الشَّديدِ علَى صَاحِبه - مثل الجَمَلِ - فرُبَّما قتلَ صاحبَه حِقدًا علَيه.

وأشهرُ أفْيَال التَّاريخ فيلُ أبرهةَ الأشْرَم الحَبَشيِّ، ذلكَ الفيلُ الذي ركبَه أبرهةُ، وتقدَّمَ به جيشَه يريدُ هَدْمَ الكَعْبَة المشرَّفَة بمكَّةَ. وكانَ الفيلُ اسمُه محمودٌ، وكُنْيَتُه أبو العبَّاس. وأبرهةُ وأصحابُه سمَّاهُم القرآنُ الكريمُ

أصحابَ الفِيلِ.

وتَقولُ القصَّةُ: إنَّ بلادَ اليَمَن كانَ يَحكمُها مَلكٌ يُسمَّى ذَا نُوَاس. واليَمَنُ بلدٌ تكثُرُ خَيراتُه، وتتعدَّدُ نعَمُ اللَّه فيه. وكانَ ذُو نُواسَ ملكًا جَبَّارًا فَاسدًا، اعتنقَ اليهوديَّةَ، وتحمَّسَ لهَا، وأخذَ يَدعُو العربَ في كُلِّ مَكان إليهَا، فإذا لم يُجِبْهُ أحدٌ قَتَلَه. فأخذَ العربُ يدخلونَ في اليهوديَّة خَوفًا من العقَاب والقَتْل.

لكنَّ أهلَ نَجْرَان كانُوا قَد اعتنَقُوا المسيحيَّةَ؛ لما وَجدُوا فيهَا من التَّسَامُح والمحبَّة، قيَاسًا باليهوديَّة، فأبَوْا أنْ يَستجيبُوا لذي نُوَاس.

وعَلمَ ذُو نُوَاس مَوقفَ أهْل نَجْرانَ، فقرَّرَ الخُروجَ إليهم، وتأديبَهم.

جمعَ ذُو نُوَاس جُنودَه، وأعلَنَ القتالَ، فهزَمَ أهلَ نجرانَ، ثُمَّ حفَرَ أُخْدُودًا كَبيرًا ألقَى فيه كُلَّ مَن تمسَّكَ بالمَسيحيَّة ورَفضَ اليهوديَّةَ.

ويشاءُ اللهُ أن يَفرَّ أحَدُ رجَال نجرانَ من انتقَام ذي نُواس، ويتَّجهَ إلى قَيْصَر الرُّوم في الشَّمال، يطلُبُ منه النَّجدةَ، وكانَ القَيْصَرُ علَى دِينِ المسيحيَّة، فقالَ للرجُلِ: يا أَخي، إنَّ بلادَكُم بعيدةٌ عنَّا.

قالَ الرجلُ: لكنِّي لَم أجدْ من ألجَأُ إليه سِوَاكُم.

قالَ القَيصرُ: سوفَ أرسلُكَ إلى مَلك الحَبَـشَة؛ فإنَّه أيضًا علَى المسيحيَّة، وهُوَ أقربُ منِّي إلى بلادكُم، ولَن يَتوانَى عَن نُصرتكم.

ويَكتبُ القَيصرُ رسالةً إلى نَجَاشِيِّ الحَبَشَة، يحـرِّضُه فيها بِاسْم المَسيحِيَّة علَى إنقَاذِ بلاد العَرَب من الدَّمَار والهَلاك.

وينطلقُ الرجلُ يَطْوي المَسـافَات، حتَّى وَصلَ إلى مَلك الحَبـشَة، ودخلَ علَيه، وسلَّمَه رسالةَ القَيْصَر، وأخَذَ يَحكي لَه عَن ذي نُوَاس وطُغْيَانه.

وكَـبُرَ علَى الـنَّجاشيِّ أنْ يَرَى المَسـيـحـيَّةَ تَكادُ تَنطـفئُ، ولَيسَ بينَه وبينَ اليَمَن إلا عُبُورُ البَحْر الَّذي يَفصلُ بَينَ الحبَشَة واليَمَن.

شاورَ الملكُ حُكَـماءَه وقوَّادَه، فـرَأَوْا أنْ يُجهِّزُوا جَـيشًا كـبيـرًا يهاجمُ ذَا نُوَاس.

وانطلقَ الجيشُ يعبـرُ الماءَ إلى الشَّاطئ المقَابل، وكانَ جيشًـا قويّا مسلَّحًا، استطاعَ أن ينتصرَ علَى ذِي نُوَاس، ويُخلِّـصَ اليَمَن من طُغْيَانه، ليكونَ ولايةً حَبشيَّةً.

وبعدَ صرَاع دَاخليٍّ عَنيف بينَ القَادة الحَبشيِّينَ فازَ أبرهةُ بحُكْمِ اليَمَن.

وبعدَ أن استقرَّ لأبرَهةَ الأمرُ جمعَ أعوانَه في قَصْره بصَنعاءَ وقالَ لهُم:

- لا بُدَّ أنْ تصلحَ حالُ هذا البلَد، وتنتشرَ المسيحيةُ في كُلِّ مكَان.

قالُوا: وبِمَ تأمرُ يا مَوْلانا؟

قالَ أبرهةُ: أشيرُوا عَليَّ، مـاذَا نصنعُ والعربُ في مكَّةَ يعظِّمونَ بِناءً قديمًا يُطلقونَ عَليه اسمَ الكَعْبة، أو البَيْتِ العتيقِ؟!

قالَ أحَدُهم ضَاحكًا: أرأَيتَ هذَا البناءَ يا مَوْلايَ؟!

قالَ أبْرَهَةُ: لا ، لَمْ أرَهْ، لكنَّني سَمعتُ عن مَدَى تعلُّقِ قُلوبِ العَرَب به.

قالَ: أنَا رأيتُه في بَعْض أسْفَاري.

قالَ أبرَهةُ: صِفْهُ لي.

قالَ: إنَّه مُكَعَّبٌ بسيطٌ من الحِجَارة، قائمٌ في الصَّحْراءِ.

اندهشَ أبْرَهَةُ، وقَـالَ: مـكعبٌ بسـيطٌ من الحِـجَـارة، ولَهُ هَـذا التـعظيمُ والتقديسُ؟!

قـالَ أحَدُ العُـقَلاَء: يا مَـوْلايَ، أنتَ تعلَمُ أنَّ قـيمـةَ هَذا البنَاءِ ليسَ في

صِغَر حَجْمه أو بساطَة بِنائه، ولكنْ في قيمَته الدِّينيَّة.

صرخَ أبرهةُ: ماذَا تَعني أيُّهَا الحكيمُ؟

قالَ: أعْني أنَّ العربَ يـقصدونَ الكعبةَ لما لهَـا من تَاريخٍ طَويلٍ، وذِكرَى طَيِّبة، وقيمَة دينيَّة عَريقَة.

صاحَ أبرهةُ غَـاضبًا: لهَذَا يا أعْـوَانِي فكَّرتُ أنْ أقاومَ عقيـدةَ العَرَب في هذَا البنَاء.

قالُوا: ماذَا تَرَى يا مَوْلانَا؟

قالَ: فكرتُ في إقامَة بنَاء أكـبرَ وأجملَ وأشدَّ فخامـةً وأناقةً من الكَعْبَة، يجذبُ إليه العربَ من كلِّ مَكَان، ويجعلُهم يتركونَ هذَا البناءَ الصغيرَ.

قالُوا: أمركَ يا مَوْلانا.

قالَ أبرهةُ: أمْوَالي كلُّهـا في خدمَة إقامَة هَذه الكَنيسَـة الفاخرَة، وسوفَ أطلقُ عليها (القلّيس) لتكونَ رمزًا للمسيحيَّةِ، وتَكونَ أبقَى من رُموزِ الأدْيانِ كلِّها.

أُريدُكُم أنْ تَبْدَؤوا فَوْرًا، وتَنْتَهُوا من إقامَتها بأسرَعِ مَا يمكنُ.

تَوافدَ المهندسـونَ الكبارُ من الحَـبشَة واليَـمَن إلى قَصْرِ أبرهةَ، يَسـهَرونَ اللَّياليَ ليَرسُمُوا شَكلاً للقلّيس يَرضَى عَنْه أبرهةُ.

وكانَ أبرهةُ يرفضُ كثيـرًا من الأشْكَال، ويُريدُ شَكلاً مثاليًا غَيـرَ مَسبُوقٍ حتَّى استقرَّ أخيرًا على أحَد الأشْكَال.

وجُمِـعَ البنَّاؤونَ والعُمَّـالُ المَهَرةُ، ويُسـخِّرُ أبرهةُ كُلَّ مَن يَعـملُ في هَذا البنَاء حتَّى انتَهَى علَى وَجْه السُّرعَة.

وبَدَأَ البناءُ يرتفعُ. كانَتْ حـجَارَتُه مَطليَّةً بالفضَّة، وبعـضُها بمَاء الذَّهَبِ، وكانَتْ أخشَابُه من أجودِ الأخشَاب، وأبوابُه من أجودِ أنواعِ المعَادنِ.

وفي وَقْتٍ قَـصيـرٍ انتَـهَى العَـملُ في البنَاءِ. وزُيِّـنَ بالرُّسُـوم والقَنَاديلِ والتَّمَاثيلِ!

ويَدعُو أبرهـةُ النَّجَاشيَّ، مَلكَ الحـبشَة، لحُـضُور افـتتَاحِ القـلّيس. وكانَ احتفالاً مَهيبًا لَم تَشهَدْ اليَمَنُ عَلَى طُولِ تَاريخها مِثْلَهُ.

ثُم أَرسلَ أبرهةُ رُسُلَه إلى كُلِّ مَكـان في بلاَد العَرَب وغَـيْرها، يَدعُـوهُم فيها إلى تَرْك الحَجِّ إلى الكَعْـبَة، والذَّهاب إلى القلّيس. وظَلَّ الرُّسُلُ يَصفونَ

جَمالَ المَبنَى وعظمتَه، والخدمَاتِ التي سَوفَ يُقدِّمُها أبرهةُ لِمَنْ يحجُّ إلى القلّيس.

لكنَّ هذَا كُلَّه لَمْ يَزِد العربَ إلا تمسُّكًا بكَعبَتهم التي أمَرَهُم اللهُ بالحجِّ إليهَا مُنذُ أقامَها إبراهيمُ وإسماعيلُ ـ عليهما السَّلامُ ـ وإلى أنْ يَقضيَ اللهُ في خَلْقه ما يَشاءُ.

ويزدادُ غيظُ أبرهةَ وغضَبُه من عنَاد العَرَب معَه، وعَدَم استجَابتِهم لأوَامره، علَى حين ازدادَ غيظُ العرَب وتمسُّكُهم ببَيْتِهم العَتيقِ.

وبلغَ غيظُ العَرَب مَبلغًا كَبيرًا، حتَّى أنَّ أحَدَهم من قَبيلة كنانَة العَربيَّة دخلَ اليَمنَ علَى فَرَسه مُتخفِّيًا، ووصلَ إلى القلّيس في صَنعاءَ، ودخلَ الفارسُ الكَنيسةَ، فوجدَهَا بناءً جميلاً حقّاً، فأرادَ أنْ يُحقِّرهَا، فأحدثَ فيهَا قَذارةً، ثُمَّ انطلقَ علَى فَرَسه هاربًا، وحاولَ بعضُ حُرَّاس الكَنيسة الإمساكَ به والقَبضَ عَلَيه، وعَرَفُوا أنَّه من قَبيلة كنانةَ، لكنَّهُ استطاعَ أن يفلتَ من قَبْضَتهم، ويعودَ إلى قَوْمِه ليخبرَهُم بما صنعَ في القلّيس.

علمَ أبرهةُ بما أحدثَه الكنانيُّ في الكَنيسَة، فثارَ ثَورةً شَديدةً، وصَاحَ:

الويلُ لكُم أيُّها العَـربُ، والوَيلُ لهَذا البَيْت الذي تحجُّونَ إليـه وتعظِّمُونَه في مكةَ. أُقسِمُ أنْ أحطِّمَه، ولا يَبقَى إلا بَيتي هذَا يقصدُه الناسُ.

وفي مَجْلسٍ عَـاجلٍ حضَرهُ أمْـهَرُ قُوَّادِ جَـيْشِه أمَـرَهُم بالاستعـدَادِ لهذَا الأمْرِ.

فأخَذُوا يُدرِّبُونَ أفيالَهم وخُيولَهم؛ استعدادًا للخُروج إلى البَيْت العَتيق.

وينتشرُ الخَبَرُ في الجَزيرة العـربيَّة، ويعلمُ الناسُ أنَّ أبْرَهةَ خارجٌ فَوقَ فِيلِه الكَبيرِ، يقودُ جيشَه المدرَّبَ؛ ليَهْدمَ الكَعبةَ.

أخـذَ العربُ يَستعـدُّونَ لمُلاقَـاته، لَكنْ كَيـفَ وأبرهةُ يملكُ من الأَفيَـالِ والخُيُولِ ومن السِّلاح والجُنُود ما يَفوقُ عَتادَ العَربِ؟!

ويَخرُجُ أبرهـةُ علَى رَأس جَيشـه، ويهزمُ كُلَّ مَنْ يعـترضُ طَريقَـه، يأسرُ عُظَماءَهم وفُرسَانَهم.

وها هُوَ يصلُ إلى تهامةَ علَى مَشَارفِ مَكةَ، حيثُ جلسَ يستريحُ، ويقيمُ معسكَرَه.

ثُمَّ بعثَ بعضَ جُنوده، فساقُوا إليه أموَالَ تهـامةَ وقُرَيْش وغَيرهَما، وكانَ بينَ مَـا سَاقَه الجُـندُ واستَـولَوْا عَلَيه مِـائَتَا بَعـيرٍ لعَـبْد المطَّلِبِ بنِ هَاشـمٍ، جَدِّ الرَّسُولِ ﷺ.

وكانَ عبدُ المطَّلب آنذاكَ سيدَ قُرَيْشٍ وشَريـفَها، يَسْقِي الحُجَّاجَ ويُطعِمُهم في مَوسم الحَجِّ.

لَم تَسكُتْ تهـامةُ علَى ذلكَ، بَلْ جَمـعتْ شَبـابَها لقتَـال أبَرهةَ، ولكنَّهُم فَضَّلُوا الصَّمْتَ والاستكَانةَ أمامَ قُوَّةِ أبرَهةَ الغَاشمَةِ.

ويَمُرُّ وقـتٌ قصيـرٌ، يُعَاني فـيه أهلُ تهـامَةَ الذلَّ والاسـتسلامَ، ثُم يُـقبلُ عَلَيهم رسولٌ من أبرهةَ، يطلبُ مُـقابلةَ سيِّد قُرَيشٍ وصَاحبِ السُّلـطانِ فيهَا، فيدلُّونَه علَى عَبد المطَّلِبِ.

ويدخُلُ الرَّسولُ إلى عَـبْد المُطَّلب، فيَـجدُ رَجُلاً بَدَويّا يَفـترشُ الأرْضَ! قالَ الرَّسولُ لَه مُندهشًا: أنتَ سيِّدُ قُرَيْشٍ؟!

قالَ عبدُ المطَّلب: نَعَمْ. أكرَمَني اللهُ بهَذَا الشَّرَف.

قالَ الرسولُ: فأينَ عَرشُكَ وبَيـتُكَ وخَدَمُكَ وأعوانُكَ وحُرَّاسُكَ، وأنتَ

هكَذا تَفترشُ الأرضَ؟!

قالَ عَبدُ المطَّلب: ليسَ لي شَيءٌ مِمَّا ذكَرتَ، فَمن أينَ أنتَ؟

قالَ الرَّسولُ: من اليَمَنَ. جئتُكَ من عنْد مَوْلايَ أبرهةَ لأنذرَكُم بقتَالٍ.

قالَ عبدُ المطَّلب: قتَالٍ؟! لماذَا القتَالُ؟

قالَ: إنَّه يقُولُ لَكُم إنَّه لَم يَأتِ لحَربِكُم أنتُم، وإنَّمَا جاءَ من أجْلِ غَرَضٍ آخَرَ.

قالَ عبدُ المطَّلب: أيّ غَرَضٍ هَذَا الذي جئتُم من أجْله؟

قالَ الرسولُ: جئنَا لهَدْمِ هذَا البَيْت الذي تحجُّونَ إليه. فإنْ لَمْ تَقفُوا دونَ وصُولنَا إليه فلَنْ يمسَّكُم مِنَّا سُوءٌ ولَن نُحاربكم. وإذَا وَقفْتُم دُونَنَا حَاربْنَاكُم وقَتَلْنَاكُم جَميعًا.

قالَ عبدُ المُطَّلبِ في هُدُوء:

واللَّه، ما نحنُ نريدُ أن نُحاربَ أبْرَهةَ، وليسَ بنَا طاقةٌ لذلكَ.

قالَ الرسولُ: إذَنْ فَلا بُدَّ أنْ تُقابلَ أبرهةَ.

ثمَّ قـامَ عَـبـدُ المطَّلب وصَـاحَـبَـه بَعضُ أبـنائه، وبَعضُ كُـبَـراء قُـرَيْش وأصْـحابُ الرَّأي، حـتَّى وصَلُوا إلى مُـعَسْكَـرِ أبرهةَ. وهنَاكَ أذِنَ لَهُم أبرَهةُ بالدُّخُول.

رَأَى أبرهةُ عَجبًا، رَأَى قَومًا من البَـادية لا تَكادُ تُميِّزُ بينَهم؛ فهُم يَلبَسونَ أثْوَابًا واحدةً، ويقفونَ معًا في صَفٍّ وَاحدٍ، لا يَتقدَّمُهم أحدٌ مِنهُم.

سألَ نفسَه: تُرَى مَنْ يكونُ سيِّدَ هَؤلاءِ؟

أشارَ إلى التُّرجمَان أنْ يسأَلَهم أينَ سَيِّدُكُم؟

قـالَ عبـدُ المطَّلب: أنَا سـيِّدُ قُـرَيش وشَـريفُهـا، وسَاقِـي حُجَّـاجِهـا، أنَا عَبدُالمطَّلب بنُ هَاشم بن عَبد مَنَاف.

وتقدَّمَ عبـدُ المطَّلب خُطْوَتَين عَن قَوْمه، فحَـدَّقَ أبرَهةُ فيه، فوجَدَه يتـميَّزُ عَن الجميع بالوَسَامة والهَيْبة والوَقَار، وإنْ كانَ مظهرُه لا يختلفُ عَن الجَميعِ.

أرادَ أبرهةُ أن يَكسبَه لصَـفِّه ويُكْرمَه. وفي تَصَرُّف مَاكـر خَبيث نَزلَ عَن عَرْشـه، ودعَا عَـبدَ المطَّلب أنْ يجلـسَ معَه علَـى بِسَاطه، ثُم قَـالَ لتُرجُـمَانه: اسْأَلْه عن حَاجَته.

قالَ عَبدُ المطَّلب: حاجَتي أنَا أنْ يَرُدَّ الملكُ عَلَيَّ مائَتَيْ بَعير أخذَهَا جنودُه.

قطَّبَ أبرهةُ حاجبَيْه غاضبًا، وقامَ من مكَانه، وقالَ لتُرْجُمَانه: قُلْ لَه: لقدْ كنتُ مُعْـجبًـا بكَ حينَ رأيتُكَ، وقدَّرْتُكَ وجلَستُ إلى جـوَارك، لكنَّني الآنَ مندهشٌ من قَوْلكَ.

قامَ عبدُ المطَّلب وواجَهَه قائلاً: ولماذَا تَنْدَهشُ أيُّها الملكُ؟

قالَ أبرَهةُ: أتُكَلِّمُني في مائَتَيْ بَعير أخذَها جُنودي منكَ، ولا تُكلِّمُني في بَيْتٍ يُمثِّلُ دِينَكَ ودِينَ أجْدَادكَ جئتُ لأهدِمَه؟!

وهُنَا قالَ عبدُ المطَّلب في هُدوء وشُموخ:

- أيُّها المَلكُ، أنَا صَاحبُ الإبل، وللبَيْت رَبٌّ يَحميه.

سَخرَ أبرَهةُ من هَذه الإجابَة، وقالَ:

- مَن هَذا الذي يَحمِـيه وأنَا قادمٌ لأهدمَه، وبَيْـني وبَيْنَه خُطُواتٌ، وفِيلِي مستعدٌّ للهُجُوم؟!

قالَ عَبدُ المطَّلب: أنتَ وشأنُك أيُّهَا المَلكُ.

صَاحَ المَلكُ في غَيظٍ: رُدُّوا عَلَيه إبلَه، واستعِدُّوا للهُجُومِ علَى الكَعْبة.

خرجَ عَبدُ المُطَّلب من مَجلس أبرهةَ ومَعَه قَوْمُه، وعادَ بالإبلِ التِي أخذَهَا الجُنودُ، ثُمَّ وقفَ علَى قمَّة عَاليَة، وأخذَ يَخطبُ في النَّاس:

ألا فَلْتَعْلَمُوا أنَّ أبرهةَ الحبشيَّ قادمٌ إلَيْكُم فَوقَ فيله الكَبيرِ يريدُ أنْ يَهْدمَ البيتَ العتيقَ، ولَيسَ بنا طاقةٌ لمحاربَته.

وليسَ أمامَنا إلا أنْ نَحْتَميَ بالجبَال، ونَبتعدَ عَن طَريقِ هذا الملكِ الظَّالمِ الطَّاغية، حتَّى يقضيَ اللهُ في هذَا الأمْر.

ثُمَّ هَبطَ عبدُ المطَّلب ومعَه كبارُ القَوم، واتَّجَهَ إلى الكَعْبة وأمسكَ بحلْقَة البَاب وقالَ:

لاهُـــمَّ إنَّ الـعَبْدَ يَمْنَعُ حِـــــــلَّه فامْنَعْ حَـــــلاَلَكْ

وانصرْ عـــلَى آل الصَّليبِ وعَـــــابديه اليومَ آلَكْ

عَمَدُوا حماكَ بكَيْدهم جَهلاً وما رقَبُوا جَلاَلَكْ

إنْ كـــنتَ تاركـــهم وكَعْبَتَـــنا فأمـــرٌ مَا بَـــدَا لَكْ

ثُمَّ أخذَ هُوَ وقُـومُه يطوفُـونَ ويهلِّلُونَ ويكبِّرونَ ويَدْعـونَ اللهَ أن يَحميَ

بيته، ويُنزلَ العِقَابَ بأبرهةَ، ويُذلَّ كبرياءَهَ.

وأخذَ النَّاسُ يَـخرُجونَ من مكَّةَ إلـى شعَاب الجـبَال بأطفَـالهم، فيُـسمَعُ بُكاؤُهم وصراخُهم، ويُسمَعُ عَويلُ النِّسـوةِ وأصْوَاتُ الحَيَواناتِ وهيَ تَخْرُجُ إلى الخَلاءِ.

وخَلَتْ مكَّةُ تمامًا من أهْلها.

إنَّ الطَّريقَ إلى الكَعْبَـة إذَنْ ممهَّدٌ يا أبرَهةُ. جـاءَه الجَـواسيسُ والعَسَسُ يُخـبرُونَه بهُـرُوب النَّاسِ إلى الجِـبَـال، وأنَّه لَيسَ في حَـاجَة إلى هَذا الجَـيش الكَبيرِ.

قالَ: بَلْ نحنُ في حَـاجَة إلى الجَيشِ الكَبـيرِ، فرُبَّمَا يُبَيِّتُ العَـربُ لنَا شَرّاً، فنستطيعُ أنْ نُقَاومَه.

خَرجَ أبرهةُ، فوجـدَ فيلَه الكَبيرَ قَد استـعدَّ تمامًا للهُجُوم، فركَـبَه مَغْرُوراً مُـتكبِّـرًا، وأشَـارَ إلى الجَيْش لـيركبَ جَنـودُه أَفيَـالَهم وخُـيـولَهم، ويُعلِّقُـوا أسلحَتَهم في أعنَاقهم، والمعَاولَ في أيْديهمْ.

ويُنفَخُ بُوقُ الحَربُ، ويَنطَلقُ أبرَهةُ في صَيْحَة المنتَصـر مُتَّجِهًا إلى الكَعْبَة

الشَّريفَة، ظَنّا منْه أنَّه قادرٌ علَى هَدْمِها ببَساطَة.

صاحَ أبرهةُ: هيَّا يَـا رجالَ أبرهةَ، هيَّا إلَى هذَا البَيْت، اهْدمُـوه، ولا تُبقُوا منه حَجَرًا واحدًا، دُوسُوا حُرُمَاتِ قُرَيْش، ولا تَأخذْكُم بأحَدٍ رَحمةٌ إذَا وقفَ في طَريقِكم.

أبرهةُ الأَشْرَمُ لا يُهْزَمُ، أبرهَةُ الأشرمُ لا يُهْزَمُ.

صَاحُوا وراءَه: أبرهةُ الأَشْرَمُ لا يُهْزَم.

قالَ أبرهةُ: سيفدُ النَّاسُ جَميعًا إلى القلّيس، يَطوفُونَ ويَحجُّونَ.

ينطلقُ أبرهةُ كـالسَّـهْم فَـوقَ فِيلِه ومن وَرائِه جَـيـشُه فـي كِبـرِيَاء وَزهْوٍ وعِنَاد.

فـيُـفـاجَـأُ أبرَهـةُ بفِـيله يبـركُ علَى الأرْضِ ولا يُريـدُ أنْ يواصلَ سَـيْـرَه وانطلاقَه.

اندهشَ أبرهةُ وكادَ يقعُ من فَوق الفيلِ!

تُرَى ما الَّذي حَـدثَ لهذَا الفيلِ؟! لَمْ يفـعَل الفيلُ من قَبْلُ مَعَ سَيِّـدِه ما فعلَه الآنَ. إنَّهَا إرادةُ اللَّه وقُدرتُه؛ فهُو آخِذٌ بنَاصيَة كُلِّ دابَّةٍ خلَقَها.

فلَمْ يكُن الفيلُ يستطيعُ أن يَعصيَ أمرَ ربِّه.

برِكَ الفيلُ علَى الأرْض عَاجـزًا ومُعَاندًا سيِّدَه، لا يُريدُ أنْ يَسـيرَ. يَضربُه أبرهةُ بحَرْبَـته، لكنَّه لا يَقومُ. يَضـربُه بمِعْوَله، لكنَّه لا يقـومُ. يُقبلُ عليـه خَدَمُ أبرهَةَ يضربُونَه لعلَّه يسـتجيبُ، وهُوَ لا يَسـتجيبُ. أمَرَهُم أبرهةُ أنْ يرغـمُوا الفيلَ علَى القيَام بأيِّ ثَمَن.

اجتمـعَ علَيه العبيـدُ وحمَلُوه من فَوق الأرْض حتَّى وَقفَ علَـى أقدَامه، لكنَّه تجمَّـد في الأرْض لا يريدُ أن يَسيـرَ. حَاولَ العبـيدُ أنْ يَقـودُوا الفيلَ في اتِّجاه البَـيْتِ العَتيقِ، لكنَّه لَوَى عُنُقَـه وضَربَهم بخُرْطُومِه، واتجَّـهَ إلى الاتِّجاهِ المُقابلِ.

حاولُوا إعادَته إلى الطَّريق الصَّحيح، لكنَّه اتَّجهَ إلى الشَّمال وكأنَّه ذاهبٌ إلى الشَّام. وانطلقَ بأقصَى سُرعَتـه، لكنَّ أبرهةَ استطاعَ أن يُوقفَه، وحاولَ أن يعيدَه إلى نُقطةِ البَدْء. لكنَّه استمرَّ منطلقًا إلى الجَنُوبِ كأنَّه يُريدُ أنْ يَعُودَ إلى اليَمَن!

سبحانَ اللَّه! ما الَّذي حدثَ للفيل، إنَّه يُطيعُ أمرَ خَالقه، هذَا هُوَ السببُ.

لقَدْ رفضَ إطاعَةَ سيِّده الطاغيَة، وأطاعَ اللهَ. حاولُوا أنْ يوجِّهُوه مرَّةً أخْرَى إلى الكَعْبَة، فخرَّ باركًا على الأرْض.

وما هيَ إلا لحظاتٌ قصيرةٌ حتَّى غَامَت السَّمَاءُ. نظرَ الجَميعُ إلى أعْلَى فإذَا السَّماءُ قَد امْتَلأَتْ بطُيور مثْلِ الخَطَاطيف السُّود.

كانَ كُلُّ طَائر يحملُ ثَلاثةَ أحجَارٍ في حَجْمِ الحَصَى الصَّغير، حَجَرٌ في فَم الطَّائر، وحَجَران في رجْلَيْه.

ثُم سُمِعَ صياحٌ شديدٌ كادَ يصيبُ الجميعَ بالصَّمَم، ثُم ألقَت الطيورُ علَى أبرهةَ وجَيْشه الأحجارَ الصَّغيرةَ من عُلُوٍّ منخَفض، فكانَت الأحْجَار لا تصيبُ أحدًا إلا هلَكَ. كانَ الحجرُ الواحدُ يقَعُ علَى رَأس الرَّجُل فيقتلُه، ولا يصلُ إلى جَنْب الرَّجُلِ حتَّى يخرجَ من جَانبه الآخَرِ ويموتَ.

وجدَ أبرهةُ نفسَه في مَوقف صَعْب، ولم يَكُنْ أمامَه مَفَرٌّ إلا أنْ يفكِّرَ في الهَرَب من هَذا المَوْقف، فلَوَى عُنُقَ فيله فاستجابَ لَه، وأشارَ إلى مَن تبقَّى من رجَاله بالتَّقهقُر والعَوْدة في اتِّجاه اليَمَن. وأصيبَ جُنودٌ كَثيرونَ، وماتَ كَثيرونَ، كمَا أصيبَ أبرهةُ نفسُه إصَابات مُوجعَة في جَسَده، حتَّى أنَّ أَصَابعَ

يدَيْه ورجلَيْه أخـذَتْ تتساقَطُ إصبعًـا إصبعًا في طَريق العَـوْدة، حتَّى وصَلُوا إلى صَنْعَاءَ، فَلمْ يمكُثْ زَمنًا طَويلاً حتَّى لحقَ بمَنْ ماتَ من رجَاله.

وصدق شاعرُهم إذ يقول:

أين المفــرُّ والإلهُ الطـالبُ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

ويحفظُ اللهُ بيتَـه المعظَّم، ويُهلكُ عدوَّه، ويبقى البيتُ مـثابةً للناس وأمناً ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾. [آل عمران: ٩٦، ٩٧]

ويَهـبطُ عَـبدُ المطَّلب ورجـالُه من أعَـالي الجـبَـال، فيُـهلِّلُونَ ويُكبِّـرونَ، ويَحمَدُونَ اللهَ أنْ حَمَى بيتَه من طُغيان أبرهةَ.

وبهذَا حفظَ اللهُ لقُرَيْش بيتَها، وأبقَى لهَا زَعامتَها.

وكانَ هَذا إيذانًا بنُبُوَّة مُـحَمَّد ﷺ، حيثُ وُلدَ في هذَا العَـامِ الذي سُمِّيَ عامَ الفـيلِ، ذلكَ الفيلِ الذي تجلَّتْ المُعْجـزَة الإلَهيَّة في عنَاده لصَاحـبه، وفي احترَامِ قَدَاسَةِ هَذا البَيْتِ العَتيقِ الَّذي يحجُّ إليه المُسلمونَ كُلَّ عَامٍ.

وتَبقَى قصَّةُ أصْحَابِ الفيلِ إحدَى آياتِ اللَّهِ الكُبْرَى.

obeikandl.com

obeikandl.com

العبيكان
Obeikan
(01) 4983392